د. أحمد حسن

قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في القرآن والسنة



اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في القرآن والسنة

دكتور
فاروق أحمد حسن دسوقي
كلية التربية ـ جامعة الرياض

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية



أفــلا يتــدبرون القــرآن ؟!!
ولــو كان من عنـــد غــير اللــه
لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

(سورة النساء : ٨٢)

منهج البحث فى القرآن والسنة
أو أهم قواعد المنهج الواجب اتبـــاعه
فى فهم الكتـــاب والســـنة

تمهيـــــد :

الله عز وجل هو الاله الحق ، وما من اله غيره ، والاله الحـــق لا يرضى من عباده ولا يقبل منهم الا الاستسلام والطاعة والانقياد له وحده ، ويرفض منهم أى استسلام أو طاعة او انقياد او عبادة يشرك فيها العبد معه غيره . فهو لا يقبل من العبد الا ما كان خالصا له وحده سواء كان ذلك صلاة أو نسكا او محيا او ممات .

فالاسلام بهذا المعنى هو العقيدة الفكرية والمشاعر الوجدانية والسلوك العملى والحياة الاجتماعية للتوحيـــد الخالص ، ذلك أن المعنى اللغوى والشرعى للاسلام هو اســـلام الوجه والارادة لله رب العالمين وصرفهما عمن سواه .

ومن ثم كان الاسلام ـــ ولا يزال ـــ هو دين الله عز وجل الذى ارتضاه لخلقه من الانس والجن ، من لدن آدم ونوحا الى ابراهيم ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام . فما من رسول أو نبى الا أتى قومه بالاسلام (ان الدين عند الله الاسلام ـــ آل عمران ١٩) . ومن ثم وجب على المسلم الايمـــان بالرسل وبمـــا جاءوا به ، لانهم جميعا لم يأتوا الا بما أوتى به خاتم الانبياء والمرسلين (قل آمنـــا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق

ويعقـــوب والاســـباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيـــون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ـــ ومن يبتـــغ غير الاســـلام دينا فلن يقبـــل منه ، وهو فى الاخرة من الخاسرين) . (آل عمران ٨٤ ـــ ٨٥) .

وبهذا المعنى تكون التوراة هى مصدر الاســـلام الذى نزل على موسى عليه السلام ، ويكون الانجيل مع التوراة هما مصدر الاسلام الذى جاء به عيسى عليه السلام . فليس ثمـــة فروقا واختلافات جوهرية بين اسلام نبى واسلام نبى آخر ، لان عقيدتهم واحدة هى « لا اله الا الله » ، وشريعتهم واحـــدة وأصلها معـــرفة الحـــلال والحرام وانظمة الحياة الاجتماعية فى الكتب المنزلة من عنـــد الله وليس من غيرها .

واذا كان اصل الاديان كذلك ، فما الذى جعل أتباع التوراة الان وقبل الان يهـــودا كافرين ، وليسوا مسلمين موحدين ؟! وما الذى جعل أتبـــاع الانجيل الان وقبـــل الان مسيحيين مشركين ، وليسوا مسلمين موحدين ؟! . وما بال أتباع القرآن حيال هذه القضية ؟

ان هذه القضية تخص ـــ فى المقـــام الاول ـــ مصـــدر الدين ، فمصدر الاسلام الذى نزل على موسى هو التوراة ، وقـــد حرفها اليهود فحادوا بذلك عن التوحيد وعن الاسلام لله عز وجل ، فمـــا أصبحوا بعد ذلك مسلمين موحدين ، ولا أصبحت الديانة التى بين ايديهم ـــ نتيجة لغلبة التحريف على كتـــابهم ـــ هى الديانة التى نزلت على موسى عليـــه السلام . (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ـــ النساء ٤٦) . (فبما نقضهم ميثـــاقهم لعنـــاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ـــ المائدة ١٣) .

وكذلك الحـــال بالنسبة للمسيحيين حيث أصاب الانجيــل من الوضع والتحريف والتغيير ما أصاب التوراة .

وانزل الله عز وجل القرآن الكريم على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ناسخا لماقبله من الكتب السماوية؛ باعتبارها لم تعد صالحة ـــ نتيجة التحريف والتبديل ـــ لارشـــاد الانسان وهدايته وتمكينه من تحقيق عبـــوديته واسلامه لله وحده (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثـــيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ـــ المـــائدة ١٥) .

ولان القرآن آخر الكتب السماوية من الله عز وجل للعالمين حتى يوم الدين ، وعد الله عز وجل بحفظه من التبديل والتحريف الذى أصاب الكتب السابقة بفعل الكافرين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـــ الحجر ٩) .

ومن ثم فالقرآن الكريم ، منذ أن أنزله الله عز وجل على رسوله الكريم صلى اللـــه عليه وسلم الى قيـــام الساعة ، هو المصـــدر السماوى لدين الله ، أى الاسلام ، ولكنه ليس المصدر الوحيد ، ذلك أن الله عز وجل أوحى الى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بوحى آخر غير القرآن الكريم هو السنة النبوية الشريفة .

فالسنة وحى من الله الى رسوله ، كالقـــرآن سواء بسواء من حيث الاصل ، بيد أن القرآن الكريم كلام الله فهو من الله بلفظه ومعناه ، وأحاديث الرســـول الامين وحى من الله عز وجل بالمعنى والمفهوم ، ولفظهـــا وحروفها من صياغة الرسول عليه الصـــلاة والســـلام .

فالقرآن الكريم والسنة الصحيحة هما مصدرا الاســلام وتلك قضية لم ولن يختلف عليها اثنان من المسلمين افــرادا وجماعات ، مدارسا وفرقا ، مذاهبا واتجاهات . والمختلف مع المسلمين حيالها بالرفض الكلى أو الجزئى أو بمجرد التحفظ البسيط ليس مسلما .

ويقدم القرآن الكريم للناس جميع الحقائق الكونية التى يجــد الانســان نفسه مدفوعا بفطرته للبحث عنهــا ، حيث يشعر بدوافع ذاتية ملحة لمعرفتها ، معرفة يطمئن لها قلبه ، ويركن اليها عقله ، وتسـكن بها نفســه .

وكذلك السنة النبوية الصحيحة ، فهى المبينة للقــرآن الكريم والمفصلة له ، وهى التطبيق الامين الراشــد ، والثمرة النموذجية الكاملة للتوجيــه والتنظيم القرآنى للحيــاة البشرية والانسانية ، متمثلة فى رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم كنموذج للسلوك الخلقى الانسانى حتى قالت عنه أمنــا عائشة رضى الله عنهــا « كان خلقه القرآن » (١) ، ومتمثلة فيه كزعيم وكقائد للمؤمنين المجاهدين فى سبيل الله ، وكحاكم لامة الحق ، ومتمثلة فيمن كانوا حوله من الصحابة رضوان الله عليهم كمجتمع نموذجى فريد ، حتى يمكن القول أن المجتمع الاسلامى فى العهد النبوى وفى عهد الراشدين كان تطبيقا امينا خالصا للقــرآن الكريم ، ومن ثم ارتقت البشرية ، متمثلة فى هذا المجتمع الى قمة سامقة نستطيع أن نقول : أنهــا لم تبلغها من قبل ولا من بعد وان كان فى مقدورها وفى مكنتها أن تعيد هذا البناء بعينه مرة ثانية الى واقع الحياة البشرية ، أو على الاقل الى درجة قريبة منه ، اذا وجدت الفئة المؤمنة التى تريد اقامته ، وتعمل وتجاهد لاعادته ، وتحيا وتموت من أجله .

---

(١) اخرجه النسائى .

فالقرآن الكريم لم يكن (لدى الصحابة كتـــاب مواعظ أخلاقية فقط ، أو تاريخا أنزل كغيره عن قرون ماضية ، وانما هو كتـــاب غيبى وانســـانى واخلاقى وعملى وضـــع الخطـــوط الرئيســـية للوجود كله ، فهو كتاب الكون منذ نشأته الى فنائه) (١) . وذلك هو الاصل الاول للاسلام (وبجانب هذا الاصل الاول ، وجد الاصل الثانى وهو السنة ، ما صدر عن رسول الله منقول وفعل واشارة ، وان يتلمسوا فى هذا الاصـــل الثانى مالا يقـــل عن الاصل الاول فى حقيقته الالهية مادة فكرهم وعملهـــم ، وسار الاصلان متعـــاونين يرسمان الحياة الجديدة ويرسخانها فى جميع قواعدها) (٢) .

وبالرغم من أن جميع المفكرين الاسلاميين على اختلاف مذاهبهم وفرقهم يقرون جميعـــا بأن القرآن الكريم والسنة الشريفة همـــا المصدر الوحيد لجميع الحقائق الكونية والمبادىء التشريعية ، فانه ــ لما يؤسف له ــ ظهور الفرق المختلفة والمتباينـــة والمتعارضة فى تاريخ الفكر الاسلامى ، وبالرغـــم من وحدة المصدر الذى يستقون منه ، فان التقـــابل بين بعض الفرق بالنسبة لبعض المسائل التى عرفت بالمسائل الكلامية ، يصل أحيانا الى حد التناقض التام وهى مسائل تمس مسا مباشرا او غير مباشر حقائق كونية يتحدث عنها الوحى ــ قرآنا وسنة ــ كالالوهية والانسان والكون والحياة .

وازاء اجمـــاع المدارس الفكرية وائمة الفـــرق فى الاسلام على المصـــدر وازاء حقيقة الحفظ الالهى للقـــرآن الكريم من التبديل والتحريف ، وللسنة من الضـــياع والتحريف ، فاننا لا نملك الا أن

---

(١) د. على النشار ــ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ١

(٢) نفس المصدر والصفحة .

نتساءل عن سبب اختلاف بعض مفكرى الاسلام وتفرقهم الى شيع وأحزاب كل حزب بما لديهم فرحون وبه متمسكون ؟! .

تتضح لنـــا الاجابة على هذا السؤال اذا علمنـــا أن المعـــرفة الانسانية موضوع ومنهج ، وذلك لان أجهـــزة الادراك والمعـــرفة البشرية عندما تبحث وتدرس وتستنبط فانهـــا تكون بازاء أمرين ، وليس أمرا واحدا .

الاول : هو الموضوع وهو مادة البحث ومصدر المعرفة .

والثانى : هو المنهج ونعنى به السبيل الفكرى والخطوات الذهنية التى يتبعهـــا فكر الباحث أو العـــارف فى مساره بقصد تحصـــيل المعـــرفة .

وبناء على ذلك ، فان علة اختـــلاف الفرق والمدارس — مادام الاتفاق قائما بينهم حول الموضوع والمصدر — تكمن فى المنهج الذى تتبعه وتستخدمه كل مدرســـة أو كل فرقة من الفـــرق الاسلامية المخلصـــــة .

أى أن اعتلاف الوسائل والمناهج التى بدأ بها مفكرو الفرق بحثهم فى القرآن والسنة أدى بهم فى النهاية الى التباعد والتقابل والتناقض فى نتائج أبحاثهم ، مما جعلهم فرقا وشيعا واحزابا ، أو على الاقل نقول أن اختلاف المناهج هو من أهم العوامل التى ادت الى ظهور الفـــرق .

ومما لا شك فيه أن الحق واحد (فذلكم الله ربكم الحق ، فمـــاذا بعد الحق الا الضلال . يونس ٣٢) فاذا اختلف اثنان أو أكثر حيال قضية ما ، فقد يكون الحق ما يقوله أحدهم فقط، وما سواه مخالفون

للحق ومجانبون للصـــواب بالضرورة ، وكل ما فى القـــرآن حق ، وليس ثمة اختلاف بين آياته وسورة أو تضارب بين حقائقه ، فاذا اختلف المختلفـــون حول حقيقة قرآنيـــة ، وكان الحق مع أحدهم فالاخرون مخطئون بالضرورة .

والفرق الاسلامية والمذاهب الفكرية يختلفون بالرغم من استناد الجميع الى القرآن الكـــريم ، وهذا يعنى أن البعض منهم لم يصب الحقيقة القرآنية فى الموضوع قيد البحث . وسبب مجانبته للحقيقة القرآنية هو المنهج الذى بحث به آيات القرآن للتوصل الى بغيته ، وهذا يعنى ان مناهج البحث عند كل الفرق ــ الا واحدة ــ تتضمن عيوبا ونقائص وسلبيات من شأنها . أن تبعد بالباحث فى القرآن عن الحقيقة القرآنية بالرغـــم من استناده على آيات من الكتـــاب الحكيـــم .

ومن ثم فاننا ــ بازاء ذلك كله ــ نكون بحاجة الى عدة قواعد تحكم نظرنا وتدبرنا وبحثنا فى القرآن الكريم والسنة ، الغاية منها أن نخرج بحقيقة قرآنية خالصـــة ــ نتيجة البحث ــ متأكدين فى الوقت عينه انها الحقيقـــة القرآنية الكاملة والشاملة فيمـــا نحن بصدد البحث فيه .

ولكى نصـــل الى ما نبغى ، ينبغى علينا ان نستعرض المعـــالم الرئيسية للمناهج التى اتبعها مفكرو الفرق فى فهم حقائق القرآن حتى نتجنبها ولا نقع فى مثل ما وقعوا فيه من أخطاء ، آملين فى الله عز وجل ان يوفقنا ويهدينا الى أهم الاسس التى نقيم عليهـــا أهم القواعد الرئيسية لمنهج البحث فى القرآن الكريم والسنة .

القـاعدة الاولى :

وجوب الرجوع الى القرآن الكريم كله
لمعرفة حقيقـة قرآنية واحـدة

الامر الاول الذى يجب أن نتبعه ، لكى يكون المنهـج صحيحا والموضوع نابعا من القـرآن ـ اذا اردنا أن نعرف حقيقـة ما فى القرآن ـ هو أن ننظر فى القرآن جملة ليتحدد ويتضح لنـا طريقة معالجة القرآن الكريم للحقـائق الكونية . فالقـرآن الكريم عند المسلمين هو كلام الله تعالى الى البشر ، صـدر من الله الواحد للانسان الواحد فى النوع ، المتعدد افرادا ، فهو يحمل فى ذاته ـ ـ اى القرآن ـ طابع الوحدة لانه صادر عن واحد، وهو صبغة الله وروح من أمره تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) .ومن ناحية أخرى فهو موجه الى الانسان الى بنى البشر المتعددين والمختلفين زمانا ومكانا ، ومن ثم فهو يحمل فى ذاته معنى الكثرة والتعـدد ، حيث يتحدث عن حقائق كثـيرة وموضوعات شتى ، فى مائة وأربع عشرة سورة تضم آلاف الايات .

ومن ذلك يصبح من المعلوم بالضرورة لكل مسلم : أن القـرآن يفسر بعضه بعضا ، فما أجمله فى موضع ، أفاض فيه تفصـيلا فى موضع آخر .

ونتيجة لهذا ينبغى علينا ـ لمعرفة حقيقة من الحقـائق الكونية أو الانسانية فى القـرآن ـ أن ننظر فيه جملة ، باعتبـاره وحدة واحدة، وأن نحاول معرفة هذه الحقيقة أو استخلاصها من هذا القرآن

الواحد ككل وليس كسور متبـــاينة ، أو آيات متفرقة . ومعلوم أن القرآن الكريم لا يحمل رؤوس موضوعات أو اسماء مباحث كمباحث الفلسفة ، فاذا أردنا معرفة حقيقة الالوهية نجد أنفسنا مضطرين بالضرورة للبحث فى آيات القرآن جميعها ، وسنجد انها جميعـــا تتناول هذه الحقيقة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . كذلك لمعرفة حقيقة الانسان فى القرآن لابد أن نعود الى آياته من أولها الى آخرها بلا استثناء ، وأن تكون نظرتنا شاملة كلية عامة حتى نخرج بالحقيقة عن الانسان كاملة صحيحة ، ولو اقتصر بحثنا على الايات التى تتحدث حديثا مباشرا عن الانسان فسوف نصـــل الى حقيقة ناقصة مشوهة ، أو ســـنصل الى بعض جوانب الحقيقـــة الانسانية فى القرآن دون الاخرى .

حقيقة أن السور القرآنية تحمل أسماء ، وقد يعترض البعض بأنها تعتبر موضوعات كاملة وهذا صحيح ، ولكن هذا الاعتراض مدفوع لاننا نجد أن الموضوع الواحد والخبر الواحد يذكر فى أكثر من موضع فى القرآن ، كما نجد كثيرا من السور تحمل اسما لموضوع واحد فقط ، مع اشتمالها على عدة موضوعات فى سياقها . فهناك سورة الانسان مثلا ، سنعود اليها حتما حين نبحث عن حقيقـــة الانسان فى القرآن ، ولكن من الخطأ أن نقتصر عليها لاننا نجد أن القرآن كله أو جله يتحدث عن الانسان بمـــا فيه سورة الانسان . ولعل أوضح مثل على هذا القـــول هو معرض الكلام عن حقيقة الالوهية وخصائصها فى القرآن الكريم ، حيث نجد أننـــا ملزمون باستعراض آيات القرآن الكريم كاملة ، حتى نخـــرج بمفهوم كامل صحيح عن فكرة الالوهية ، واذا كنـــا سنقتصر البحث عن الايات

المباشرة فقط ، تلك التى تتحدث عن الله وصفاته وأفعاله ، فلن نصل الى مفهوم لفكرة الالوهية كما هى فى هذا الكتاب . فهنـــاك آيات تتناول مخلوقات جزئية معينة هى فى حقيقتهـــا تخبرنا عن خصائص الله سبحانه وصفاته ، فآيات الكتاب الكريم كلها خطاب موجه من الله تعالى الى البشر ، وفى الكلام دلالة خاصة على قائله وخصائصه جل وعلا . حتى لو كان موضوع القول بعيدا تماما عن فكرة الالوهية فآيات القرآن الكريم التى تتحدث عن خلق العالمين (السموات والارض) لها دلالتها الخاصة على القدرة الالهية المطلقة فقوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ــ يس ٤٠) اعلام لنـــا بحقيقة طبيعية وسنة كونية وقانون فلكى تنتظـــم بحسبه حركات الافلاك . ولكن بدون هذه الحقيقة الفلكية ومثيلاتها الكونية والطبيعية لا نستطيع ان نستشعر مدى عظمة القدرة الالهية وسعة العلم الالهى وشموله وقوة احكامه تعالى للعالمين حيث يخضع كل شىء فيه لحكمه وقدره ومشيئته، وبدقةبالغة بحيثيستحيل انيخرج كوكب أونجمعنمساره المحدد أو يسبق أو يتأخر عن زمنه الذى حدده له خالقه تعـــالى . وهذا يستتبع القول بأنه سبحانه وتعـــالى على كل شىء رقيب ، يدبر شئون العالمين وليس مهملا وتاركا لهـــم . تلك الحقائق من اخص خصائص الالوهية قـــد فهمناها من آية واحدة تتحـــدث عن بعض مخلوقات الله وان دل هـــذا على شىء فانمـــا يدل على ان القرآن وحدة كاملة شاملة عامة ، ويجب أن يؤخذ كذلك عند البحث فيه عن أى حقيقة من الحقائق . وهذا يلزمنا بأن نستخدم فى البحث بين آياته منهجا احصائيا شاملا ، بمعنى أن لا يكون هناك مجـــال لاغفال أو ترك بعض الايات أو حتى آية واحدة .

ومما لا شك فيه ، أن طبيعة اللغة ــ اى لغــة ــ تحتم على مستخدمها كى يصل الى المعانى الصحيحة للالفــاظ ، أن يتنــاول الجملة أو العبارة كاملة وكذلك الموضوع . وهذا ينطبق ، بطبيعة الحال ، على اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم . فنحن اذا تركنا آية او اخذنا بعضها دون البعض ، قد نصل الى معنى مغــاير أو مناقض للمعنى المقصود . فمثلا الاية (فويل للمصلين ــ الماعون/٤) اذا فصلت عمــا بعدها يصبح معنــاها وعيد للمصلى ، ونهى عن الصلاة ولا شك أن هذا تناقض واضح مع نصوص الايات الاخرى ، ولكن باستكمال سياق الايات يتضح المعنى الحقيقى حيث يقول الله (فــويل للمصلين ، الذين هم عن صــلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون ــ الماعــون / ٤ ــ ٧) .وهذا شىء معروف لدى مفكرى المسلمين وعامتهم ، الا أن الامر الذى وقع فيه كثير من مفكريهم، هو عدم أخذ القرآن كله كوحدة واحدة، والرجوع اليه جميعا عند البحث عن اية حقيقة من الحقائق التى تضمنها .

ولقد فعل ذلك علماء بنى اسرائيل واحبارهم بكتابهم نصا ومعنى، فآمنوا ببعض كتابهــم وكفروا ببعض . فبدلوا وحرفوا وغيروا ، وهذا نوع من التبديل والتحريف والتغيير يمكن تسميته بالتبــديل السلبى بمعنى انه قائم على اخفــاء بعض الحقــائق والغائها أو تكذيبها والكفر بها بالتجاهل والتغاضى عنها وليس بالانكار الصريح، وفى ذلك يقول سبحانه (ثم انتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وان يأتوكم

اسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم اخراجهم ، **افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟** فما جزاء من يفعل ذلك منكم ، الا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ــ البقرة / ٨٥) وآية سورة الانعام تقول (وما قدروا الله حق قدره ، اذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ تجعلونه **قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا** ، وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم . قل : الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ــ الانعام/٩١).

فاذا كان بنو اسرائيل قد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا بالبعض الاخر ، وذلك عن قصد وسوء نية واضحين ، فان كثيرا من مفكرى أو متكلمى الاسلام قد أخذوا ببعض الكتاب وتركوا البعض ــ عن قصد أو غير قصد ــ حين تبويبهم وتصنيفهم للحقائق الالهية والكونية والانسانية واستخراجها من القرآن ، وذلك بتركهم النظرة الشاملة الكاملة ، فجاء تقريرهم للحقائق مشوها قاصرا غير واف أحيانا كثيرة ، ومضطربا ومتناقضا فى بعض الاحيان .

فالقائلون بالجبر لم يصيبوا حين قرأوا (والله خلقكم وماتعملون ــ الصافات/٩٦) أو (وما تشاءون الا أن يشاء الله ــ المدثر/٥٥). وامثالهما وما فى معناهما مقتصرين عليها . وكذلك القدريون عندما اقتصرت نظرتهم على الايات الكثيرة الدالة على الاختيار مثل قوله تعالى (كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره ــ الانسان/٣٠) أو قوله

(قل : الحــق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شــاء فليكفر ــ الكهف /٢٩) . وتوقفوا عندها .

بل ذهبت بعض الفرق فى الاستدلال بالايات الى استعمال نصف الاية أو بعضها ، ومثال ذلك تعاملهم مع قوله تعالى (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ، وماتشاءون الا أن يشاء الله ، ان الله كان عليما حكيما يدخل من يشــاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا اليما ــ الانســان /٣٠ــ٣١) . حيث نجد أصحاب القدر والاختيار يقتصرون على الاستشهاد بالجزء الاول منها (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) ، واصحاب الجبر يهملون الاول ويستشهدون بالجزء الاخـير فقط (وما تشاءون الا ان يشاء الله) . وعندما يواجه كل فريق بمــا يناقض مذهبه من الاية يلجأ ــ متعسفا ــ لتأويلها .

القــــاعدة الثانيـــة :

افراد الله عز وجل بالالوهية والربوبية
يوجب افــراد الوحى كمصدر للعقيدة والشريعة

والامر الثانى المهــم لكى يكون المنهج علميا والموضوع قرآنيــا خالصا فى بحثنا عن حقيقة الكون وموقف الانسان فى الاسلام ، هو ان يكون القرآن والسنة فقط هما المصدرين الوحيدين قولا وتنفيذا وليس قولا فقط وبمعنى آخر علينا أن نسأل ، ثم نسمع الاجابة من ربنا جل وعلا وحده ، وذلك بالبحث فىالقرآن والسنة وحدهما دون ادخال شركاء من مصادر أخرى من دونهما .

ان القرآن والسنة الصحيحة وحى من السماء ، وهذه الحقيقة ، التى تعتبر مسلمة من مسلمات ومبادىء الاسلام واصوله ، تخطاها الكثيرون من مفكرى الاسلام ـ بقصد أو بغير قصد ـ مما نتج عنه اتخاذ اصول بشرية ووضعية أخرى معهما ، تدخل على المفكر فى صورة أفكار ونظريات وفروض يعتقد هو بصحتها ، أو مترسبة فى أعماقه نتيجة رواسب ثقافية قديمة وسابقة ومغايرة لروح الوحى وحقائقه ، ومن ثم يصبح مصدر الباحث أو المفكر فى هذه الحالة القرآن والسنة وغيرهما ، وهذا مالا يستقيم مع مبدأ افراد الوحى كمصدر وحيد للحقائق الغيبية والتشريعية والتاريخية ، وحين يختلط المصدر السماوى بمصادر أرضية ينتهى الباحث حتما الى تخبط وتناقض وتضارب وبعد تام عن الحقيقة المنشودة . فعلينا اذا كباحثين عن حقيقة ما فى الاسلام ان نقبل على مصدريه ، وقد أفرغنا عقولنا من كل تصور سابق لم يستمد مباشرة منه . اى أن يكون عقلنا صفحة بيضاء خالية من الفروض والنظريات والافكار المسبقة ومستعدة لتلقى الحقائق كما هى .

حقيقة أن الرسول والصحابة لم يقوموا بعد تلقيهم للقرآن ، باثارة مشاكل فلسفية فكرية عن الالوهية والكون والانسان . وفى هذا يذكر الاستاذ الدكتور على سامى النشار ما نصه (كانت فلسفة القرآن التى ذكرنا صورا منها تتردد فى كيان المسلم ، وتعلن اليه حقائق الكون وحقائق الانسان ، ولم يحاول المسلم فى أوائل عهد القرآن ان يبحث وأن يتجاوز الحدود التى رسمت ، ورأى

حقيقتين امامه كما قلت، حقيقة توفيقية وحقيقة توقيفية ✿ اماالاولى فقد سار فيها وارتاض رياضة كبرى فانتج العلم التجريبى ، وحقيقة توقيفية لم يستطع عليها صبرا فبحث فيها ايضا اما بمنهج متطابق معها واما بمنهج مخالف فظهر العلم النظرى) (١) .

كما يقول الدكتور محمد البهى ما نصه (ان النبى عليه السلام لم يقف عند وصف من اوصاف القرآن والحديث لذات الله تعالى، ليخرج من هذا الوصف مذهبا او مذاهبا فى فهم العقيدة ــ كما حاول بعده المسلمون ــ بعد ان تفرقوا وتحزبوا مستندين الى عبارة او عبارات وردت فى القرآن او الحديث يصح اويحتمل أن يمال بها الى رأيهم الخاص ومذهبهم الشخصى ، ولكنه عليه السلام لم يثر مثــلا حول الايات الظاهرة للاختيار والاخرى الظاهرة للجبر مثل ما اثاره حولها فيما بعد بعض المعلقين والمتفهمين من القدرية والجبرية ، ولم ير صلى الله عليه وسلم كذلك بين النوعين من الايات تضادا حاول أن يرفعه كما صنع بعض متفهمى العقيدة او المفسرين . لم يعمد عليه السلام الى التخريج اذا كما عمد المسلمون بعده، ولم يشأ أن يبحث ويتعقب فى آى الذكر الحكيم الذى منه آيات محكمات هن أم الكتــاب وآخر متشابهات) (٢) لان مثل هذا التخريج او التنقيب يستلزم حياة

---

(١) د. النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ ١ ص ٤ ط. الاسكندرية ١٩٦٥ .

(٢) د. محمد البهى : الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ص٤٠.

✿ يقصد بالاولى العلم المادى التجريبى الذى فوضـــه الرسول الكريم للعقل البشرى بقوله « انتم أعلم بأمور دنياكم اما الثانية فيقصد بها حقائق العقيدة والشريعة .

رغدة آمنة ، خالية من الجهاد ولان ذلك ايضا لم يكن من الخير للأمة الاسلامية الناشئة ، التى كانت فى ذلك الوقت أشد ما تكون فى حاجة الى الوحدة الفكرية الكاملة . والان وقد كثر خصوم الاسلام وهجومهم عليه ، وتزاحمت منذ صدر الاسلام حتى الان الملل والنحل والفلسفات والمبادىء تريد كلها أن تنتقص منه كعقيدة صالحة للحياة والبقاء ، أما وقد كان ذلك ، فقد أصبح لزاما على مفكرى المسلمين ، أن يذودوا عن دينهم ويبرزوا حقائقه كاملة شاملة من القرآن والسنة وبالمنهج النبوى الكريم اى ان واجبنا أن نتخطى كل المناهج التى استخدمها مفكروا الاسلام المختلفون مقتصرين على أسلوب الرسول الكريم والصحابة المهديين من بعده فى تعاملهم مع كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة . ولا يتسنى للمسلمين ذلك الامر الا بافرادالقرآن والسنة كمصدر وحيد للبحث وذلكبخلع ونقضكل آثار وافكار ونظريات الثقافات البشرية والاقبال على القرآن بعقول خالية وناصعة مستعدة للتلقى وليست متحفزة للاضافة والتحريف. أن افراد الله عز وجل بالالوهية والربوبية يوجب افراد الوحى كمصدر للعقيدة والشريعة .

علينا اذن أن يكون بحثنا فى القرآن الكريم خالصا من آثار ونتائج مباحث الفرق الاسلامية التى ظهرت بعد عصر الصحابة والتابعين وخالصا أيضا من الافكار والنظريات الحديثة التى يظن البعض انها اسلامية لوجود بعض الشبهبينها وبين بعض مبادىء الاسلام، معتمدين فى فهمنا للنصوص على موحيات الايات حسب قواعد

اللغة العربية . ومن ثم فالامر الذى يجبأن نتوخاه فى المنهج هو الا نقبل على القرآن وفى أذهاننا فروض وحقائق مسبقة غريبة عنه ومستمدة من أى مصدر آخر ، ثم نبحث بين آياته ونصوصه عمـا يؤيد ما فى أذهاننا من حقـائق وأفكار . فالذى ادى بالمسلمين الى الاختلاف فى فهم العقيدة وحقائق القرآن فى المقام الاول هو (محاولة جلب نصوص العقيدة الى رأى أو آراء أو حقائق معينة حددتهـا أهداف وبواعث اخرى ــ غير العقيدة ذاتها ــ كان اهمها اهداف سياسية واجتماعية وغيرها وسيطرت على طائفـة أو طوائف من المسلمين) (١) .

القـاعدة الثالثـة :

الوحى والعقل ومنهج التأويل العقلى

وهذه القاعدة خاصة بتحديد امكانية العقل البشرى ودوره حيال النص الالهى ✡ فالاسلام يقرر ابتداء وجود عالمين على الفـرد ان يؤمن بهما كشرط لقبول اسلامه ، هما: عالم الغيب وعالم الشهادة، حيث تقول الايات الاولى من الكتاب (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقـين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصـلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ــ البقرة / ١ــ٤) .

وعالم الغيب هذا خارج عن نطـاق وحدود الزمان والمكـان : المقولتين اللتين يعمـل من خلالهما العقل ، واللتـين لابد أن يكون

✡ انظر كتاب : «خصائص التصور الاسلامى» للاستاذ سـيد قطب (كلمة فى المنهج) .

(١) د . محمد البهى : الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ص ٣٢

موضوع تفكيره واقعـــا تحتهما . أما عالم الغيب : الله والمـــلائكة والسموات والجن والاخرة فهذه أمور لا يدركها العقل ولا يستطيع ان يعرفها معرفة تفصيلية بنفسه ، وانما دوره حيالها هو التلقى والفهم والتصديق ، وما عدا ذلك ، أى عالم الشهادة وهو العـــالم المحسوس الذى تقع موضوعاته واجزاؤه تحت الزمان وفى المكان . فللعقل أن يبحث فيه ويصل الى حقائقه . ومن ثم فحقـــائق الغيب لا تناقش مناقشـــة عقلية منطقية ، وانمـــا نعرفها ونتلقـــاها من النصوص ثابتة كما هى . ويقتصر دور العقل فيها على التصنيف والتقسيم والتبـــويب والتقنين . حتى نخرج بحقيقـــة عامة كاملة متوازنة متناسقة ، وغير منافية للعقل ولا للمنطق .

وعلى هذا فلا يعتبر العقل فى مستوى الوحى ، اذ أن الحقائق الغيبية التوقيفية التى وردت فى القرآن والسنة فوق مستوى العقل البشرى ، وغير داخلة فى نطـــاق عمله ومادة تخصصه . وقـــد نادى القرآن بالحقائق التوقيفية الحقائق التى لا مجال للعقل أن يرتادها ولم يحدث ان اخترق العقل أيضا منذ وجد القرآن ومنذ وجد الحديث على هذا الكون سياج الحقائق التوقيفية . ووجه العقل الى نطاق الحقائق التوفيقية ، الحقائق التى للعقل مجال التوفيق فيها ، وقد اندفع العقل فى نطاقها فأبدع كما سنرى بعد العلم واقام الحياة) (١)

---

(١) د . النشار / نشأة الفكر ج ١ ص ٢ .

ومادمنا فى معرض الحديث عن العقل والوحى ، فلا يفوتنـــا أن نذكر أن بعض مفكرى الفرق الاسلامية بداوا البحث فى القرآن وفى اذهانهم مقررات عقلية سابقة ، أو فروض يعملون على اثباتها — سواء كان مصدرها المفكر نفسه ، أو أى مصـــدر أجنبى آخر من الفلسفات والثقافات الغريبة عن الاسلام — فان وجدوا بين آياته ما يؤيد هذه المقررات والفروض فبها ونعم ، وان لم يجدوا قاموا بتأويل الايات والاحاديث تأويلا متعسفا لا تقبله الاية ، ولا يحتمله متن الحديث . وبذلك انحرفوا بتأويلات النصوص القرآنية والنبوية ومفهوماتها انحرافا شديدا .

ومما لا شك فيه أن شيوخا فى الفكر الاسلامى مخلصين قد لجأوا للتأويل العقلى لحل مشكلات فكرية معينة . ولكن الذى حدث أن غيرهممنغير المسلمينأوغير المخلصينقداستخدموا هذاالمنهجالفكرى استخداما يهدم الاسلام . فوضعوا به للقـــرآن تفسيرات باطنية وعلمية وعقلية ، جعلت منه قرآنات وليس قرآنا واحدا . وذلك هو السبيل الذى لجأوا اليه فى محاولة منهم، لتغيير القرآن وتحريفه وتبديله ، عبثـــا بالمعنى ، بعد أن قهرهم اللفظ المنطـــوق والنص المكتوب فعجزت أصابعهم أن تمتد اليه .

وما وقع فيه بعض المخلصين من علماء الاسلام ، نتيجة ايمانهم الشديد بالعقل ، واعتباره فى مرتبة مساوية مع الوحى ، هو محاولة اخضاع الوحى لمقرراته حتى تبدو حقائقه معقولة ومقبولة ، مسايرة منهم لروح الحضـــارة السائدة فى عصرهم ، دفاعا عن الاســـلام

وحرصا منهم على نشره . بيد ان نتـائج هذا المنهج كثيرا ما تكون خاطئة وخارجة عن المضمون الحقيقى للحقائق القرآنية ، ومن ثم يأتى النسق الفكرى الاسلامى غأ متوافق ولا متوازن أو متساند ، ويحمل فى طياته كثيرا من الثغرات ووجوه النقـد ، ومثال هؤلاء فى القديم : الجهمية والمعتزلة ، وغلاة الشيعة والخوارج ومتفلسفة الصوفيه ، ولكن نأخذ مثلين على ذلك من مفكرين حديثين همـا : الشيخ محمد عبده ، وتلميذه الشيخ رشيد رضا .

مسايرة لروح العصر نجد الشيخ محمد عبـده فى تفسير قوله تعالى (وأرسل عليهم طيرا أبابيـل ، ترميهم بحجارة من سـجيل فجعلهم كعصف مأكول ـ الفيل / ٣ـ٥) يفسر الحجارة من سجيل بأنها (ما يسمونه الان بالميكروب) أما عن الطير ، فقد أجاز لنـا ان نعتقد أنه (من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل الجراثيم). ومن ثم تكون هذه الحجارة من سجيل هى جراثيم (مرضى الجدرى او الحصبة) حيث بسببهما يتساقط لحم البشر بدليل قوله تعـالى (فجعلهم كعصف مأكول) . (١) ولو جادلناه بالعقل لقلنا له ان مرضى الجدرى والحصبة يحتاج كل منهما الى زمن طويل لكى يهلك جيشا جرارا كاملا . وقد أثبتت الروايات التاريخية أن هذا الجيش كان على بعد ساعات من الكعبة حين نزلت الطير عليهم بالحجارة من سجيل . فلو كانت جراثيم لاحتاجت وقتا حتى تتغلب على مناعة ومقاومة الجسم وتمرضه . ولكن الذى حدث انه بمجرد حضـور

---

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ١٢٠ كتاب الشعب .

هذه الطير والقائهـــا بالاحجار على الجند والفيـــلة غروا ورجعوا هالكين . وما الدليل على ان معنى الطـــير الابابيل فى اللغـــة هو الذباب ! ؟ . ان هذا التأويل يتضمن انكارا للمعجـــزة ولقدرة الله تعالى المطلقة ويوحى بان الله عندما يريد ان يفعل شيئا يتحتم عليه ان يفعله حسب القوانين والسنن الطبيعيـــة والكونية وهو قول يؤدى ويلزم فى النهاية بانكار المعجزات . ولكنا لا نجادل بالعقـــل ولا نقول بالرأى فى كتاب الله تعالى . انما أردنا ان نبين فساد هذا المنهج فقط .

هذا مثال يوضح لنـــا كيف حرص الشيخ محمد عبـــده على أن يكون النص القرآنى ملائما كل الملاءمة للعلم الحديث ، وموافقا مع سمة الحضارة المادية العقلية لعصره ، جعله يتأول النصوص تأويلا غريبا عن مدلولات الايات . فماذا لو عاش الامام الى أيامنا هذه ، حيث القنابل الذرية والهيدروجينية والغازات السامة والقنـــابل الحارقة ؟ أيتغير اذا معنى الحجارة من سجيل لتصبح شيئا عصريا أم ماذا يكون معناها فى المستقبل ؟ أن هذا السبيل فى التفسير يجعل المعانى للايات متغيرة ومختلفة وخاضعة لمكتســبات العلم وسمة الحضارة لكل عصر من العصور .

والمثال الذى اخترناه عن تلميذه الشيخ رشيد رضـــا رحمه الله هو ذكره فى تفسير المنار أن الملائكة هى القوى والافكار الموجودة فى النفوس ، وأن المراد بسجود الملائكة لآدم هو تسخير هذه القوى للانسان فى هذه الحياة . وأن قصة آدم بما فيها من محاورة الملائكة

وتعليمه الاسماء ، وسجود الملائكة له من باب التمثيل لم تقع بالفعل .

وهكذا نجد أن مدرسة تفسير المنار التى جعلت من أهدافها التوفيق بين الدين والعقل ، قد أصابها طائف من المبالغة حيث أسرفت فى الخضوع للعقل ، كما أسرفت فى الحذر من تقبل حقائق الغيب التى قد لا تتمشى مع عقلية العصر وسمة الحضارة المادية . وقد حدث ذلك فى معرض محاولة الشيخ رضا نفى طوفان الخرافات الاسرائيلية ، وغيرها التى تسربت الى رحائب التفسير ، وجعل أحكام الدين وحقائقه ومقرراته معقولة للفهم البشرى ، وربما كان له الحق فى ذلك ولكن نهجه الذى احتكم فيه الى العقل فى كل حقائق الوحى خاطىء حيث حاول أن يقضى على كل الغيبيات الوارد التسليم بها ، ورفض أن يقف عند الحقائق التوقيفية ، وعالجها باعتبارها توفيقية حيث نسى أن يرجع لفهم كل حقيقة فى ضوء كل الحقائق والايات القرآنية الاخرى . والا فكيف يستقيم مفهومه للملائكة مع قوله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس — الحج / ٧٥) ، ومع قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله (١)) أى الملائكة الحفظة ، ومع وصف الله سبحانه لهم بأنهم (أولى اجنحة : مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء (٢)) واذا جاز أيضا ما يقول فان الشيطان أيضا

---

(١) سورة الرعد : ١١ .

(٢) سورة فاطر : ١ .

يكون معنى وقوى شريرة غير مرئية (١) ، بينما كل النصوص الواضحة الصريحة تثبت بما لا يدع مجالا للاختلاف أنه من الجان وهو مخلوق كالانسان يأكل ويشرب ويتزوج وينسل ويؤمن ويكفر ويدخل الجنة للنعيم والنار للعذاب ان كل ما جاء عن الملائكة والجن يثبت أنها ذوات حية عاقلة وليس ثمة مجال لغير هذا المفهوم .

---

(١) من مثل هذه التأويلات المتعسفة ما ذهب اليه فكر الدكتور محمد البهي فى تفسيره لسورة « الجن » ، فقد صادم فى تأويلاته هذه صريح القرآن والسنة .

ذلك أنه أنكر وجود عالم ثالث يتميز عن عالم الملائكة وعالم الانس ويتقابل تماما مع كل منهما هو : « عالم الجن » ، فالملائكة والجن — عنده — من طبيعة وأصل واحد وهو : « النار » ، فالنار منبع النور ، والنور عرض ومظهر للنار !! فترتب على ذلك اضطرابه وتخبطه فى تفسير السورة ، فذهب بعقه مثلا عندما فسر قوله تعالى : (قل أوحى الى : انه استمع نفر من الجن ..) الى أن الفريق الذى تخفى ولم يكن معروفا للمكيين — حتى كذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم — عند سماعه القرآن بمكة هو من (البشر) وليس من القوى النارية (الجن) !!

ولو أخذ (الدكتور) بصريح القرآن وصحيح السنة النبوية لما أنكر شيئا علم ثبوته من الدين بالضرورة ، فقد ثبت بالدليل القطعى الذى لا احتمال فيه والخبر الصادق الذى رواه أحمد ومسلم — رضى الله عنهما — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق الانسان مما وصف لكم» والذى يجب ان نسلم به بالنسبة للنور الذى خلقت منه الملائكة والنار التى خلق

←

اما امثلة التفسيرات الخارجة باللفظ عن معناه الواضح الصريح، وتحميله مالا يحتمل فمنها تفسير بعض الصوفية لقوله تعالى (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (١)) ، أى النفس وتفسيرهم قوله تعالى لموسى (فاخلع نعليك) (٢) أى بدنك ونفسك ✿ ومثل ذلك ايضا فهم ابى حامد الغزالى « للنعلين » انهما يرمزان الى الكونين : الدنيا والاخرة وأن الله يطلب منه بجانب خلع نعليه الذين فى قدمه ان يطرح الدنيا والاخرة وأن يتوجه الى الواحد الحق ، ويعلل ذلك بأنهما متقابلتان متحاذيتان كالنعلين ، وهما

← منها الجان انهما سر من أسرار الله ولاسبيل لعقولنا وحواسنا فى ادراكهما . وعليه فيكون من التعسف الا نسلم بوجود الجان كعالم متميز فى أصله وطبيعته وخصائصه ، وبذلك يكون النفر الذين استمعوا القرآن هم من قبيل (الجن) وليسو من البشر ، ويكون أبليس من الجن تسليمابصريح قول الله تعالى: (الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) وليس من الملائكة ومن الجن فى آن واحد كما ذهب الدكتور فى تأويلاته .

(١) سورة البقرة : ٦٧

(٢) سورة طه : ١٢

✿ نقل د . مصطفى محمود هذه التأويلات الرمزية الخارجة من مصادرها فى كتب التصوف وأسماها « محاولة عصرية لفهم القرآن » ، ووفق الاستاذ عبد المتعال الجبرى فى الرد عليه فى كتاب بعنوان « شطحات مصطفى محمود » من منشورات دار الاعتصام بمصر .

عارضات للجوهر النورانى البشرى حيث يمكن اطراحهما مرة ، والتلبس بهما أخرى . فمثال اطراحهما عند الاحرام للتوجه الى كعبة القدس خلع النعلين) (١) .

بل ان الامام الغزالى فى محاولة منه للتوفيق بين تفسيرات ومفهومات خاصة للايات ، وبين منطوقات الالفاظ الوضعية ، ومفهومات الايات القرآنية حسب قواعد واصول اللغة العربية منعا لانزلاقه الى ماذهب اليه الباطنيون من معانى غريبة وبعيدة كل البعد عن القرآن الكريم — قد أثبت لكل آية مفهومها الذى تحدده معانى الالفاظ المعروفة بين أهل العربية ، ثم جعل هذه الالفاظ والايات فوق أنها مقصودة لذاتها وهى حق ، مجرد رموز لمعانى علوية وامور نورانية أخرى ، لا يدركها كل الناس وهى مثل تعبير الرؤى فكما الشمس فى الرؤيا تعبيرها السلطان ، والقمر تعبيره الوزارة ، فكذلك نجد أن (فى الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب ، فكذلك فيها ماله أمثلة أخرى اذا اعتبرت منه أوصاف أخر سوى النورانية) (٢) . ثم يذهب بعد ذلك الى تفسير الطور والوادى المقدس طوى والنعلين برموز معينة كما مر .

---

(١) ابو حامد الغزالى / مشكاة الانوار د . ابو العلا عفيفى ص ٦٩ ، ٧٠ . القاهرة ١٩٦٤ .

(٢) الغزالى / مشكاة الانوارص ٧٠ .

وقد لا نستطيع التحدث عن خطورة منهج التأويل العقلى والرمزى بين أيدى المخلصين من شيوخ الاسلام ومفكريه ، مراعاة لظروف عصورهم ودواعى استعمال ذلك المنهج وتوفر حسن النية عندهم . ولكن أحدا من المفكرين الاسلاميين المخلصين لا يستطيع السكوت على بعض الذين يلحدون فى آيات القرآن الكريم بهذا المنهج ، حيث يعبثون بالمعنى بعد عجزهم عن العبث باللفظ ، ومن أمثلة ذلك حديثا تفسير البهائية المائدة التى نزلت على عيسى والحواريين من السماء بأنها غذاء الروح والعقل ، واحياء عيسى عليه السلام للموتى بأنه اخراج الجاهل من ظلمة الجهل الى نور العلم ، وهكذا يؤولون كل المعجزات التى حدثت حدوثا حسيا واقعيا مخالفا للعادة على أيدى الانبياء والمرسلين فيجعلونها أمورا معنوية يقدر عليها كل مصلح اجتماعى أو أى بشر عادى .

ومثله ، ميرزا غلام أحمد القاديانى ، الذى ادعى النبوة فى الهند فى القرن الماضى ، وفسر لاتباعه كون الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء بأنه معتمدهم بخاتمه وليس آخرهم (١) .

كل ذلك يحتم علينا الحذر من منهج التأويل العقلى ، والالتزام بمدلول الالفاظ والعبارات حسب دلالاتها اللغوية ، وقواعد اللغة

---

(١) المسألة القاديانية لابى الاعلى المودودى .

العربية . واقفين بالعقل عند حدوده ✲ ، مميزين بين ماهو توفيقى وما هو توفيقى من الحقائق ، فلا نهمله أو نبخسه قدره بل نضعه فى موضعه الذى خلق لاجله .

القاعـــدة الرابعـــة :

المعرفة بالوحى والمعرفة بالعقـــل

وتتلخص فى أننا يجب الا نقبل على القرآن بغية البحث فيه عن ادلة لابطال آراء الخصم ، أو مفهومات ــ رأينا فى خالص فكرنا أنها خاطئة ــ وذلك لدحضها وابطالها . لان ذلك النهج الفكرى ينحرف بالباحث عن ادراك الحقيقة القرآنية فى ذاتها . فالحقيقة القرآنية هى المعيار الذى توزن به مسائل المذاهب والنظريات والفلسفات الاخرى ، أو هكذا يجب أن تكو ن، مادمنا فى نطاق الفكر الاسلامى

✲ يراجع بتوسع كتاب : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين » للعلامة الشيخ مصطفى صبرى شيخ الاســـلام السابق فى دولة الخـــلافة العثمانية ، وهذا الكتاب فى جملته مجموعة من المواقف الفكرية الجليلية، تصدى فيها شيخنا العظيم لتيارات الالحاد وفتنة قداسة العقل عند مشاهير المؤلفين المعاصرين فى الوطن الاســـلامى ، المفتونين بفتوحات العقـــل فى حضارة الغـــرب المادية ، لكى يرد الى قيم الاسلام وعقائده صفاءها ومكانتها فى النفوس .

كما يراجع فصل : تربية العقل فى كتـــاب « منهج التربية الاسلامية » للاستاذ محمد قطب ، فقد توسع فى بيـــان حدود العقل ومجالات عمله .

الخالص . ومن ثم وجب معرفتها كاملة وبطريقة مباشرة من القرآن والسنة وذلك بعكس سبيل الفكر البشرى الحـــر الذى يتدرج فى اكتشاف الحق فى المسألة تدرجا بطيئا حيث يعجز وحده عن معرفة الحقيقة دفعة واحدة. فالدارس لمسارات الفكر البشرى فىفلسفات وعقائد الحضارات الجاهلية المختلفة قديمها وحديثها يرى ان العقل الانسانى يكتشف الفكرة أو المبدأ أو التفسير أو النظام لما يبدو فيها من حق وخير ويعتنقها زمنا ما ، ولانها افكار ونظم بشرية فلا مناص من تلبس الحق بالباطل والخير بالشر فيها ، ومن ثم لا يلبث العقل الا قليلا حتى يكتشف الاخطاء والاضرار فيما ظنه حقا محضا وخيرا كاملا ، فيندفعبعد ذلك ـــ فىمحاولة لعلاج الخطأ وتلافى الاضرار ـــ الى نقيض الفكـــرة الاولى أو النظـــام السابق وهو لا يدرى انه باندفاعه هذا من النقيض الى النقيض قد استبدل خطأ بخطأ وشرا بشر وتخطى بذلك الحق الكامل والخير الخالص . والذين درسوا الفلسفة اليونانيـــة يدركون الى أى حد ينطبق هذا القـــــول على تاريخها . حتى نستطيع ان نرى مسار العقل اليونانى وانتقاله فى تفسيره للوجود اعتماده على مبدأ التغير الى الثبات ومن التعـــدد الى الوحدة ، ومن المادية المحضــــة الى التصورية الصرفة ، ومن الجزئية الى الكلية ، ومن انكار القدر والعناية الالهية للعالم الى الايمان بالقدر الصارم الذى يخضـــع له كل شىء حتى الاله نفسه وهكذا حتى انتهت الفلسفة اليونانية على غير اتفاق ، وكذلك كل الفلسفات وعلة ذلك تكمن فى تكليف العقل البشرى بما لا يطيق وبما لم يخلق من اجله فقد كانت موضوعات الفلسفة اليونانية هى نفس

موضوعات الوحى ، فلو خلق الله العقل البشرى مؤهلا لهذه الموضوعات لما جاءت الرسل للبشرية ، ولكن الرسالات السماوية نزلت من السماء حتى لا يبرر أحد من الناس يوم القيامة ضلاله وفسوقه بالجهل (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (١) فلو كان العقل وحده كفيلا بهداية الانسان للحق الكامل والخير الخالص لما جاز للناس أن يحتجوا بعدم ارسال الرسل . ولكن الله تعالى الذى خلق الانسان وعقله وفكره جعل لعقله حدودا وموضوعات خاصة تليق به وجعل حقائق الغيب والتشريع خارج هذه الحدود ومخالفة لموضوعات العقل ، شاء سبحانه ان يرسل الرسل حتى لا تكون هناك حجة للناس لعلمه تعالى انه بدون الوحى السماوى لا يهتدى الانسان الى الحق ابدا ولا يصل الى الخير المنشود فى دنياه وآخرته .

لقد أدركنا الغرور ، ونحن نرى العقل البشرى يبدع فى عالم المادة ، ويأتى بما يشبه الخوارق . فوهمنا أن العقل الذى يبدع الطائرة والصاروخ ويحطم الذرة وينشىء القنبلة الهيدروجينية « ويرتاد الفضاء » ويعرف القوانين الطبيعية ويستخدمها فى هذا الابداع ... وهمنا ان هذا العقل جدير بأن نكل اليه كذلك وضع (نظام) الحياة البشرية ... وقواعد التصور والاعتقاد وأسس الاخلاق والسلوك .. ناسين أنه حين يعمل فى (عالم المادة) ، فانه

---

(١) سورة النساء : ١٦٥

يعمل فى عالم يمكن أن يعــرفه ، لانه مجهز بادراك قوانينه .. أما حين يعمل فى (عالم الانسان) فهو يعمل فى متاهة واسعة بالقياس اليه . هو غير مجهز ابتداء بادراك حقيقتها الهائلة الغامضة (١)

والذى فعله الانسان بتجربته البشرية فى الفلسفة اليونانية هو انه وضع عقله أمام موضوعات لم يخلق لها وليست فى طاقتــه . وليس معنى ذلك اننا نقلل من شأن العقل والفكر . كلا . فالعقل أو الفكر اوالذكاء البشرى بخاصة وجميع أجهزة الادراك البشرية بعامة هى أعظم ملكات الانسان وقدراته ، وهى خطيرة الشأن فى وجوده ، فبدونها لا يستطيع أن يحقــق هدفا من أهدافه الكونيــة العظمى التى خلقه الله من أجل تحقيقها . ولكن الانسان ــ بعقله وأجهزة ادراكه جميعا ــ يعجز عجزا تاما عن ادراك ومعرفة حقائق الغيب والتشريعات المنظمة لحيــاته الفردية والاجتماعية اذا ترك العقل البشرى وحده دون توجيه وتعليم وترشيد من السماء ومعنى ذلك أن للعقل دورا رئيسيا وهاما فى معرفة حقائق الغيب والوحى والتشريع ولكن الخطأ يكمن فى محاولة العقل البشرى معرفة ذلك وحده دون قيادة الوحى وتوجيهه .

ان السائح الذى يريد أن يعتمد على نفسه فى اكتشــاف الاماكن السياحية والاثــرية التى جاء من أجــل زيارتها رافضا الدليــل السياحى مخطىء حيث من المؤكــد أن مدة زيارته ســتنتهى دون

(١) عن كتاب : « المستقبل لهــذا الدين » للاستاذ ســيد قطب رحمــه الله .

معرفة هذه الاماكن بل ربما ينتهى عمره كاملا دون أن يصل اليهـــا جميعا . حقيقة أنه من المحتمل أن ينجح فى التعـــرف على بعضها ولكن من المؤكد أنه لن يصل الى زيارتها كلها ومعرفتها المعرفة التى يمكن أن يجنيها من مرافقة المرشد السياحى . والسائح هنـــا هو العقل البشرى عندما يرتاد الامور والمســـائل الكونية والوجودية والمرشد هو الوحى والوحى من عالم الغيب ولذلك فهـــو المصدر الوحيد للانسـان لمعرفة هذا العالم معرفة كاملة وحقيقية يقينية .

وعندما يقبل السائح مختارا مرافقة المرشـــد حيث سيعطيه من المعرفة والهداية فى وقت قصير ما لايستطيع ان يجنيه فى عمر طويل وحده يقبل اختيـــارا او طواعية التزامه بطاعته ويترك له قيـــادته وتنظيمه ويسلم بما يلقنه اليه من معلومات تاريخية واثرية ويقتصر دوره على التلقى والفهم والاستجابة .

وهذا هو المطلوب من العقل البشرى حيال الوحى الالهى الهادى الى الحق والمرشد الى الخير: التلقى والفهم والتسليم والاستجابة. فالاسلام هو اســـلام الارادة لله فى السلوك والمعاملات واســـلام العقل الى الوحى فى مجال المعرفة وادراك الحق . ولن يتم احدهما الا بالاخـــــر .

ولا شك اننى عندما أخضع عقلى كانسـان لقول الله تعالى ايمانا بان فيه كل الحق ، ولا حق فيما سواه اذا كان يخالفه ــ فاننى فى الواقع احرره ولست أخضعه أواقلل من شأنه لان الاستسلام لله وحده

تحرر واستعلاء على ما سواه . والعقل وقوانينه الفكرية من صنع الله ، ومن ثم فخضوعه للحق وتوافقه مع الحق الاتى الينا من الله واستسلامه له وأخذه عنه انما هو تكريم له وليس تقليلا من شأنه ؛ وليس هناك تكريما لكائن أعظم من وضعه فى موضعه المناسب له الذى خلقه الله من أجله .

ننتهى اذن انى تقرير نتيجة هامة وصحيحة ، تتلخص فى قولنا : أن ما يظل العقل وحده باحثا عنه قرونا طويلة دون الاهتداء اليه ، يتلقاه نقيا مباشرا وسريعا وكاملا من الوحى الالهى ، وفى هذا رحمة وخلاص للناس وهداية لهم انى الحق والخير اللذان لاتستغنى عنهما البشرية .

ومن ثم ينجو الانسان بذلك من التخبط بين الافكار المتناقضة والنظم المختلفة ، كما حدث فى الفلسفات والعقائد الوضعية قديما وحديثا ... ومعنى ذلك أننا يجب ان نتلقى الحقائق القرآنية باعتبارها حقائق كاملة وليست حقائق جزئية ناقصة تنتظر منا استكمالها والاضافة اليها أو تعديلها لاننا عندما نكون بازاء حقائق القرآن الكريم فاننا نتلقى ونسمع من الله عز وجل بعكس سبيل العقل البشرى فى التفكير حينما ينتقل من فكرة الى نقيضها أو من فكرة الى فكرة مكملة لها أو من معنى الى معنى يتداعى وراءه وبسببه ، فاذا نحن حاولنا معرفة حقائق الوجود والغيب من القرآن بهذا السبيل الفكرى الذى يغلب على طبيعة العقل البشرى فى بحثه فاننا سنقع لا محالة فيما وقع فيه مفكرو الاسلام

قديما مما أدى بهم الى الفرقة والتقابل والتناقض فى المذاهب والاتجاهات حيث نجد نماذج من هذا الخطأ المنهجى فى التفكير الاسلامى قديما عند الفرق ، بل ان منشأ الفرق ذاتها ، ووجودها لم يكن الا نتيجة لهذا الخطأ فى تطبيق المنهج . اما تطبيقه على الحقائق التوقيفية ، فسيؤدى حتما الى التخبط والى الحصول على نتائج خاطئة . وهذا ما وصلت اليه فعلا بعض أو معظم الفرق الاسلامية . فهناك فرق قامت كوجه مقابل وكرد فعل لفرق أخرى ، رأت الفرق الثانية خطأ الاولى بل فسوقها أو كفرها فاذا بها تذهب الى الطرف الاخر من القضية متعدية الحقيقة .

ومثال ذلك ظهور فرق الخوارج التى انشقت على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وغالى بعضهم حتى قال بكفره فتبع ذلك ظهور الشيعة الذين تشيعوا له ، ويغالى أيضا بعضهم حتى ذهبوا الى تأليهه ، والحقيقة تجافيهما فما هو بكافر ولا هو باله .

مثال آخر ، يتمثل فى تفشى القول بالجبر فى عهد بنى أمية واخذ الناس يتعللون ويحتجون عن معاصيهم بالقدر الالهى المكتوب ، وهذا خطأ وضلال دفع تابعيا صدوقا هو معبد الجهنى الى مقاومته فقال لا قدر والامر انف وانكر القدر — فوقع فى خطأ آخر لانكاره القدر وهو أصل من أصول الايمان فى الاسلام .

ولكن معبدا حينما أخطأ فى محاولته معالجة هذا الانحراف كان خطؤه منهجيا قبل أن يكون موضوعيا . حيث لم يعد الى آيات

القرآن يستلهمها الرأى ، وانماء جاءت محاولته للبحث فى الموضوع قاصرة ناقصة على غير أساس منهجى سليم ، مدفوعا بالرغبة فى مقاومة الاتجاه الاخر ، ومعالجة الانحراف العقيدى والخلقى الناتج عنه ، فأنكر القدر انكارا تاما ، وذلك بسبب استخدام عقله وفكره استخداما مستقلا مغفلا لنصوص الوحى وتوجيهه .

وخلاصة القول: أنه كما يتعين علينا الانقبل على القرآن بمقرارات عقلية أو فروض ذهنية مسبقة باحثــين فيه عما يؤيدها بتــأويل نصوصه أو بغــير تأويل ، كذلك يجب علينا الا نقبــل عليــه وفى أذهاننا من الافكار والنظريات والفروض والاراء التى نعتقد أنهــا خاطئة ومنحرفة ــ بغية البحث بين آياته عمــا يدفع هذه الافكار ويدحضها .

القاعــدة الخامســة :

ضرورة تــوافق
الحقيقة المستنبطة من ابحث فى القرآن
مع غيرها من الحقــائق القرآنية

وهذه القاعدة فى هذا المنهــج ، قاعدة معيارية بمعنى أنه ينبغى علينا أن نزن الحقائق التى نصل اليها بعد البحث بمعيار نابــع من القرآن أيضا وليس معيارا أجنبيا عنــه أى انه لابد من أن تكون الحقيقة المستخلصــة من الايات متوافقة مع بقية حقائق القــرآن بصفة عامة من ناحية ، كما تكون متوافقة ومتسقة ومتساندة مع كل سورة وكل آية من آياته جميعا ، وليست متعارضة مع آية واحدة، والا بطلت هذه الحقيقة المستخلصة على الفور ورفضت رفضا تاما وقاطعــا .

وذلك لازم من مسلمتين هامتين ✿ يؤمن بهما المسلمون . وتؤيدهما المناهج العلمية للنقد التاريخى أولاهما : ان القرآن كله منزل بجميع آياته من عند الله سبحانه ، وأن الله سبحانه وتعالى وعد البشرية بحفظه من التبديل والتغيير والضياع (واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) (١) . (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (٢) . وهذا يعنى يقينا أن ما بين ايدينا من الذكر ، هو بكامله وبرمته كتاب الله لا زيادة فيه ولا نقصان ولا تحريف فيه ولا تبديل .

وهذه المسلمة يؤدى تجاهلها او انكارها الى الخروج بمتجاهلها أو منكرها عن محيط الدائرة الاسلامية : أن القرآن كتاب منزل من عند الله تعالى ، ومن ثم فكل ما جاء فيه حق كامل ، وكل ما أرشد اليه خير تام وكل ما نهى عنه شر مؤكد . والقول بغير ذلك كفر بالقرآن وتكذيب به وتكذيب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم لا يمكن اعتبار اى بحث فى القرآن والسنة لا يقوم على هذه المسلمة بحثا اسلاميا حتى لو استدل على نتائجه بآيات قرآنية،

---

(١) سورة الكهف : ٢٧ (٢) سورة الحجر : ٩ .

✿ القول بأن هذه مسلمة انما هو فى نطاق الفكر الاسلامى وبين المسلمين حيث التسليم بأن القرآن وحى الهى ، أما حيال غير المسلمين وفى مجال الفلسفة العامة فان هذه القضية يجب أن تقدم بأدلتها العقلية والتاريخية والاعجازية للقرآن الكريم فهى مسلمة بالنسبة للمسلمين وغير ذلك بالنسبة لغيرهم .

ولتوضيح ذلك نقول : ان الباحث الاسلامى يجب أن لا يقبل على القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المحققة باعتبارهما كتابين من الكتب والمصادر الكثيرة التى يرجع اليها ، فكل المصادر سوى القرآن والسنة يخير فيها الباحث الاسلامى بين الاخذ والترك . والحق فيها مرهون بنتائج البحث وخاضع لقواعده المنهجية ، اما القرآن الكريم فلا يملك المسلم حين يتلوه أو يبحث فيه الا أن يعتقد ويسلم ابتداء بصحة كل ما جاء فيه ، وصدقه وأحقيته وكذلك السنة المحققة الصحيحة . والذى يتناولهما بقصد أخذ ما يتفق مع مذهبه وترك مالا يتفق ليس باحثا اسلاميا ، وثمة شك فى اسلامه لو علم خطأ ما يفعل وأصر عليه . ولا فرق بينه عندنا وبين المستشرقين اليهود والصليبيين الذين يبحثون فى أصول الاسلام ليس بقصد معرفة الحق ولكن بقصد الانتقاء من آياته ما يخدم أهدافهم واخفاء وتجاهل ما يتعارض معها .

وثانى المسلمتين : هى أن القرآن يوافق بضه بعضا ، ولا يضرب بعضه بعضا ، فهناك اتفاق واتساق وتوازن واحكام بين آياته ، وبالتالى بين حقائقه ، ومن ثم فأنه يلزم من هاتين المسلمتين أن تكون الحقيقة المستخلصة من الايات متمشية ومتوافقة مع باقى الحقائق والايات ، سواء أكانت تلك الحقائق خاصة بعالم الغيب ، أو بعالم الشهادة ، أو فى مجال التاريخ والاخلاق والتشريع .. هذا هو المعيار الاول .

أما المعيار الثانى : فهو قائم على هذا الاول ، ذلك ان القرآن الكريم يقدم لنا حقائق كثيرة ، ولكنها يمكن أن تصنف دراسيا الى

حقائق نظرية ، وأخرى عملية . وهو ما عرف عند علمــاء الاسلام ــ اصوليين وفقهاء ــ بالتوحيد وابحاث الفقه والتشريع . وهمـــا فى القرآن مرتبطان يقوم الثانى على الاول ويكمل أحدهما الاخر ؛ فالنظم العملية متفقة ومتساندة وقائمة على الحقائق التصورية حيث نجد التشريعات العملية فى الاسلام قائمـــة ومرتكزة على التوحيد وحقائق العقيدة الاســـلامية ارتكاز البناء على أساســـه فى باطن الارض ، كما ان المسلم لا يصبح موحدا الا بالتطبيق العملى للتشريع القرآنى الفردى منه والجماعى على حد سواء .

فالقرآن الكريم يقدم لنـــا عقيدة تصورية محضـــة فى الالوهية والعالم والانســـان ، ولكن هذه العقيدة التصـــورية ليست مجرد موضوع للذهن البشرى يتعامل معه ويقف عند هذا التعامل الذهنى التصـــورى . بل أنه يعتبر الاســـاس الفكـــرى الذى تقـــوم عليه التشريعات الخلقيـــة والاجتماعية والانسانية فى الحيـــاة البشرية واليومية والجيلية منهـــا على حد سواء . فالعقيـــدة التصورية للفرد هى أصل الدوافع النفسية للعمل والحياة ، وهى بالنسبة للمجتمع أساس النظم القائمة فيه . والقرآن ليس كتابا فى الميتافيزيقا ✿ والابحاث الكونية أو الفيزيقية ، الهدف منهـــا المعرفة المجردة للثقافة والتثقف فقط .

✿ الميتافزيقا : كلمة يونانية ترجمتها « ما بعد الطبيعة » ، وكان فلاسفة اليونان عادة يقسمون مباحثهم الفلسفية الى مباحث فى الطبيعة «الفيزيقا» ومابعد الطبيعة «الميتا فيزيقا» والاثنان عندهم يشكلان العـــالم أو الوجود وثمة اختـــلاف بين هذا التقسيم وبين مفهوم العالم والوجود فى الاسلام .

فلطالما دعا رسـول الله صلى الله عليه وسلم بدعائه المأثور « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع » ، « اللهم انى أسالك علما نافعا » ، ولا علم اعلا وانفع من توحيد الله عز وجل ، وهو أساس العقيدة الاسلامية ، وكل مافى القرآن والسنة الصحيحة حق وعدل، اما الحق فهو تصورات وأقوال تعبر عن حقائق كائنة وموجودة فى العالم وليست تعبر عن أوهام أو أساطير أو خرافات والا لما كان حقا . والحق ليس مجرد علم نظرى تصورى فقط ، بل هو الاساس الذى تقوم عليه السموات والارض اى العالمين . وهذه المعـرفة ليست من نوع المعارف النظرية والظنية عند الفلاسفة والمفكرين . ويعتبر التوحيد هو أساس الحق فى عقيدة القرآن ، وهو أيضـا أساس الحق فى العـالم وقوانينه التى تحكمـه ، ومن ثم فمعرفته ليست مجـرد علم للثقافة والمعرفة النظـرية بل انه يترتب عليه السلوك الفردى والاجتماعى فى الحياة البشرية ويتحقق به الخـير والعـدل .

أما العدل ، فهو السلوك العملى للافراد والجماعات الذى يحقق الخير للانسان فى الدنيا والاخرة ، ولا عدل الا عدل القـرآن ، ولا عدل بدون الحق . ومن ثم لا يتمثـل الحق كقيمة والعـدل كنظام وعمل الا بالتوحيد .

فالتوحيد أو عقيدة الاسلام مرتبط أوثق ارتباط بالعمل ، والعدل والخير يقومان عليه قيام البنـاء على الاساس أو الشـجرة على الجذور الممتدة فى باطن الارض ، وتعتبر السعادة والحيـاة الطيبة

فى الدنيا والاخرة هى الثمرة التى يجنيها الانسان من هذه الشجرة الطيبـــــة .

ومن ثم فان السنة هى التطبيق العملى للقرآن حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام النموذج البشرى الحى لهذا التطبيق ، حيث كان خلقة القرآن كما أن الصحابة عليهم رضوان الله فى مجموعهم كانوا هم النموذج البشرى الحى لمـــا يجب أن يكون عليه المجتمـــع الانسانى . حتى انه يمكن القول أن الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة معه فى مجتمع المدينة قد عاشوا الحقائق الكونية كمـــا عاشوا وتمثلت فيهم الحقائق الانسانية : الخلقيـــة والاجتماعية فى القرآن . وتلك ظاهرة تاريخية ، ربما أمكن القول ، انها لم تتكرر كثيرا حيث وحـــد القرآن بين شـــعوب وأمم ومجتمعـــات متغايرة بتأسيسه نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية فى المجتمع الاسلامى على تصور اعتقادى واحد هو: حقيقة التوحيد، ومن ثم تحقق الحق الكونى فى واقع الحياة البشرية متمثلا فى العدل القـــــرآنى .

ننتهى من هذا الى أن حقائق الاسلام جميعا بتساندها وترابطها ، انما هى حقائق عملية فى المقام الاول حتى حقائق الكون الغيبية فيه. وكذلك الحقائق الانسانية التى تحـــدد ماهية الانسان وغايتـــه فى الكون وتعلل وجوده فى هذه الحياة .

نخلص من ذلك كله أنه يتحتم علينا اذا وصلنا الى مفهوم ما عن الانســـان وحريته ــ نتيجة بحثنا للقـــرآن والسنة ــ أن ننظر فى النهاية ان كان هذا المفهوم وما يستتبعه من نتائج عملية يتمشى مع الغاية والمفهوم اللذين يحددهما القرآن لجميع الحقـــائق الكونية

الاخرى ، أم لا ؟ وذلك قبل أن نعتبر ما وصلنا اليه حقيقة قرآنية ثابتة ونهائية .

فاذا وجدنا هذه المفاهيم الانسانية ومفهوم الحرية مثلا ، لا يتعدى الجانب التصورى النظرى وانه ليس له صلة ولا رابطة بالغاية من الحياة البشرية ، التى لا تتحقق الا بالعمل ، ولا يكون له المشاركة والدور الرئيسى فى تحقيق الغاية البشرية من الوجود الانسانى بعامة ، والحياة البشرية بخاصة والتى تعمل وفقها الموجودات جميعا حسب حقائق وجودها كما هى فى القرآن ، فان هذا المفهوم خاطىء لا محالة ، حيث أنه يصطدم مع الغاية التى تؤدى اليها بقية حقائق القرآن الغيبية والطبيعية والانسانية متكاتفة ومتوازنة فى تناسق وأحكام حيث الغاية واحدة والمنهاج للوصول اليها واحد .

فاذا خرجنا فى بحثنا عن حقيقة الحرية الانسانية بنتائج لا تعدو وأن تكون مناقشات ومحاورات ومجادلات فلسفية لا تتعدى ظاهر الصفحات ، وبطون الكتب الى واقع الحياة فلا يكون هذا البحث ونتائجه بحثا صحيحا بالقياس الى صبغة القرآن وروح الاسلام .

فكم من مفاهيم فلسفية عن الكون والانسان ظلت هكذا منذ وضعها واضعوها ملتصقة بصفحاتها ومدادها لا تعدوها الا الى رؤوس دارسى الفلسفة ، ثم لا يكون لها اى أثر على حياتهم الخلقية، وبالتالى تكون مقطوعة الصلة بينها وبين مجتمعات هؤلاء الفلاسفة

والدارسين . وخير مثال على ذلك هو مفهوم الالوهية عنــد معظم فلاسفة اليونان ، حيث لا نجد له أى تأثير عملى على سلوك الناس فى الحياة ، بعكس حقيقة الالوهية فى الاسلام ، التى اذا آمن بهــا مجتمع ما كان لها أكبر الاثــر بل كل الاثر فى تنظيم حيــاة أفراده ومجموعاته وأجياله تنظيما دقيقــا تستقيم معه حياتهم ويهنــأ به عيشــــهم

وكذا كل الحقائق الكونية النظــرية فى القرآن ، كان لهــا كل الفضل فى تشكيل وتخطيط الحياة اليومية فى المجتمــع الاســـلامى بمنهاج القرآن القــويم .

وأخيرا يمكننا صــياغة هذه القاعدة المنهجية المعيــارية الاخيرة للبحث فى القرآن بالقول بأنه اذا كان بديهيا أن لا يأتى البحث عن حقيقة ما من حقائق القرآن بمفهوم متعــارض مع نصوصه وآياته جميعا ، فانه يلزم أيضا أن تكون هذه الحقيقة المستخلصة من سوره وآياته غير متعارضة أو منافية أو مناقضة معــه ككل ، أى مع ما يمكن تسميته بروح القرآن أو صبغته أو اتجاهه العام من ناحية ، كما يلزم أن تكون غير متضاربة ومتناقضة مع بقية حقائقه ومفهوماته الصحيحة الاخرى من ناحية ثانية . فيكون المفهوم عن هذه الحقيقة موضوع البحث نابعا ومشتقا من هذه الروح القــرآنية أو الصبغة الالهية ، اشتقاق الفرع من الجذع ، متماثلة معها تمــاثل الثمرة والشجرة ، فنعــلم حينئذ باطمئنان ويقــين أن ما وصلنا اليه من نتائج ومفاهيم انما هى مفاهيم صحيحة عن حقيقة قرآنية كريمة .

القـــاعدة السادســة :

اخلاص النيــة وســلامة القصــد

وتتلخص فى ضرورة صدق النية وابتغاء الحق والحق وحده عند البحث فى القرآن الكريم ، فالانســان يجب أن يتنزه عن الهــوى ويخلص نفسه من التحيز والتعصب القومى أوالعنصرى اوالعقيدى أو غير ذلك مما يقف حاجزا بين الانســان وبين ادراك الحقيقــة المنشــودة .

واخلاص النيــة وصدقها أو ابتغاء الحق وحــده عند البحث فى القرآن أمر نفسى خلقى وليس أمرا فكريا منهجيا . ولكن الانســان وحدة واحدة وأجهزته تعمــل جميعها حين يعمل أعلى الاعمــال وأرقاها وتعمل جميعها حين يقوم بأدناها ، والفصــل بين اجهزته وملكاته فى تفسير النشاط لانسانى سبيل خاطىء . ومن ثم لا يصح أن نلغى أو نتجاهل عمل الارادة عند تفسير النشاط المعرفى ، كما لا يصح أن نتجاهل أجهــزة الادراك والعلم البشرية عنــد تفسير النشاط الخلقى .

وليس كل من قرأ القرآن اهتدى به ، بل ثمة من الناس من يضله الله به ، فالناس تقــرأه فيضل الله به البعض ويهدى به البعض الاخر ، ولكن من الذى يضله الله بالقرآن ومن الذى يضــله الله بالقرآن ومن الذى يهديه الله بالقرآن ؟

تأتينا الاجابة من القرآن نفسه ، فيقول الله تعالى :

ـــ « واذا قرأت القرآن ، جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده : ولو على ادبارهم نفورا » (١) .

ـــ ويقول الله سبحانه وتعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا » (٢) « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ، ليذكروا ، وما يزيدهم الا نفورا» (٣)

اى بينا الايات والامثال والوعد والوعيد ليتعظموا ولكن ذلك ما يزيدهم الا بعدا عن الحق ونفورا منه .

ـــ ومثلها قوله تعالى : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟!! يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين» (٤)

فيبين سبحانه فى هذه الايه من كتابه العزيز ، أن الله يهدى بالقرآن ويضل به ، أى بآياته ووعده ووعيده ، ويشقى به ويزيد به نفور النافرين منه والمحاربين له .

---

(١) سورة الاسراء : ٤٥ ـــ ٤٦ (٢) سورة الاسراء : ٨٢ .
(٣) سورة الاسراء : ٤١ (٤) سورة البقرة : ٢٦

ومن ثم فليس التعامل مع القرآن الكريم من خلال العقل أو الفهم أو أجهزة الادراك البشرية فقط دون الارادة ، بل ان الارادة الانسانية المختارة تعتبر عاملا حاسما فى تقبل الحق والهدى والخير النازل فيه ، أو الصرف عنه .

ـــ وقوله سبحانه وتعالى « فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (١) يدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء المكذبين والكافرين بالحق لا يعقلون ذلك بسبب نقص فى المعرفة أو بعد عقلى عن الحق ، وانما بارادتهم يكذبون جحودا ونكرانا وعنادا واصرارا على الهوى وحرصا على الدنيا . اذن : فالعلة فى كفرهم وتكذيبهم ، هى ارادتهم الحرة وليس قصورا فى ادراك الحقيقة والحق .

واذا عدنا الى الاية التى ذكرناها وما بعدها من سورة البقرة حيث يقول الله تبارك وتعالى : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا ، فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الارض ، أولئك هم الخاسرون » (٢) نجد أن نقض العهد والميثاق ومعصية الله والافساد فى الارض ، ينتهى بقارىء

---

(١) سورة الانعام : ٣٣ (٢) سورة البقرة : ٢٦ ـــ ٢٧

القرآن وسامع ما يضربه الله للناس من امثال فيه الى الضلال وليس الى الهدى ما دامت هذه حاله ، ويهدى الله بالقرآن وبهذه الامثال المؤمنين لايمانهم .

والايمان الكفر فعلان نفسيان اراديان اختياريان للناس ، كما سنعلم ذلك بعد .

ومن ثم تكون معرفة الحق والخير — وهما مطلب العقل البشرى — مرهونة بالايمان وعمل الخير فى الارض . وهنا تخضع المعرفة للاخلاق فى الاسلام ، وليس كما ظن فلاسفة اليونان حيث أخضعوا الاخلاق للمعرفة . ونعنى بخضوع المعرفة للاخلاق ، ان ادراك الحقيقة ومعرفتها مرتبط أوثق ارتباط باختيار الانسان المتمثل فى النية والقصد الى الخير أو الى الشر ، فمن يقبل على القرآن الكريم وفى نفسه ابتغاء معرفة الحق وحده ، يهديه الله ويفتح له كنوز معرفته بقدر تقواه (اتقوا الله ويعلمكم الله) ، ومن يقبل عليه وفى صدره حرج منه وشك وريبة وهو يقراه وقد عزم على تكذيبه ، ومن ثم يبحث فيه عن تناقضات وهمية بين آياته أضله الله به .

وهذه القاعد ليست قاعدة منهجية فكرية لانها لا تتم بالفكر ولا يطلب من الفكر تطبيقها . ولكنها قاعدة خلقية سلوكية تتم بارادة الانسان واختياره للخير وابتغائه للحق ، وليس فى مقدور القواعد المنهجية والاساليب الفكرية أو غيرها الزام أحد باختيار

الخير دون الشر أو العكس . ولكن ليكن معلوما أن القرآن الكريم لا يكرم الله به الا أهله ، المؤمنين به ، والمسلمين بكل ما جاء فيه ، العاملين بشريعته فى حياتهم العامة والخاصة ، وغير هؤلاء ليس لهم من آياته وحقه نصيب .

وهذه القاعدة التى تقوم على التجرد لله بغية معرفة الحق عند البحث فى القرآن ، هى أول القواعد وأحقها بالالتزام وأجدرها جميعا بالتمسك لانها مفتاح البحث القرآنى .

فالعمل الذى لا تسبقه النية الواضحة الخالصة لله لا يقبله الله . والبحث فى القرآن الكريم عبادة من أجل العبادات لو خلصت فيه النية لابتغاء الحق والخير . ومن ثم فهى تسبق كل القواعد وتتقدم عليها فى خطوات البحث . ولكننا أوردناها كخاتمة لكل القواعد السالفة من حيث كونها ليست قاعدة منهجية معرفية بقدر ما هى سلوكية خلقية وان كانت شرطا لازما لمعرفة الحق والخير القرآنيين .

في هذا الكتيب :

❁ القرآن الكريم — تشرحه السنة النبوية المطهرة — صدر من الله الواحد للانسان الواحد في النوع المتعدد أفرادا ، فهو يحمل في ذاته طابع الوحدة ، لانه صادر عن الواحد الاحد ، فلننظر فيه جملة ، ونقبل عليه بقلوب وعقول خالية من فروض ونظريات وأفكار متأثرة برواسب ثقافية سابقة ، كمصدر وحيد للحقائق الغيبية والتشريعية والتاريخية .

❁ وما دمنا في نطاق الفكر الاسلامي الخالص المتنزه عن الهوى ، فيجب أن نعلم أن المطلوب من العقل البشري حيال الوحي الالهي الهادي الى الحق والمرشد الى الخير ، هو التلقي والفهم والتسليم والاستجابة .. وليس معنى ذلك اننا نقلل من شأن العقل والفكر ، كلا . فالعقل والذكاء البشري بخاصة وجميع أجهزة الادراك البشرية بعامة ، هي أعظم ملكات الانسان وقدراته، وهي خطيرة الشأن في وجوده، فبدونها لا يستطيع الانسان تحقيق أهداف وجوده التي خلقه الله من أجلها . ولكن الانسان — بعقله وأجهزة ادراكه جميعا — يعجز تماما عن ادراك ومعرفة حقائق الغيب والتشريعات المنظمة لحياته الفردية والاجتماعية اذا ترك وحده دون توجيه وتعليم وترشيد من السماء أو دون هدي الوحي .

دار الدعوة — الاسكندرية

الكتاب القادم للمؤلف :

« مشكلة الحرية في الفكر الاسلامي »

